فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة انت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق باذنك انك تهدي من تشاء الى صراط مستقيم »

هذا ما يسر المولى بفضله جمعه من عدة مصنفات ، كما ظهر في العزو اليها في الاصل والتعليقات ، والمقام جدير بالعناية ، لذوي الدراية ، والله ولي الهداية ،

دمشق : جمال الدين القاسمي

اوغست كونت وفلسفته (١)

«تمهيد»

نبغ في فرنسا بعد نقض الاوضاع القديمة كثيرون من المفكرين الذين بحثوا في نظريات الاجتماع وفي طليعة هؤلاء النابغين الفيلسوف اغست كونت . وقد اختلف الباحثون في مذهبه الذي حركه الطعن في الفوضى فوضعه قوم بين دمتر وفوريه وقالوا بوحدة آرائهم مع اعترافهم لكونت برجاحة العقل وتوفر المكتسبات الفنية وجعله آخرون بين هيوم ولابج والمشاهد فاخطأ الفريقان مركزه وعزا الاولين ما رأوه بين الطرق التي انتهجها الفلاسفة الثلاثة الى مقاصدهم من التشابه فشغلهم ذلك عن النظر في ضعف الرابطة بين مرامي كونت الباحث في تحديد شروط الاتحاد الاجتماعي ومرامي دمتر وفوريه بالفرد كونت تمكن سواء بدأه المشهور ان النظام الاجتماعي لا يمكن تغييره الا اذا جعلت التصورات النظرية في الهيئات الاجتماعية خاضعة لتأثير الفن وادمجت في ما سواها من المستنبطات البشرية وهذه الخاصة تفسح لكونت مجالاً بين فلاسفة الاجتماع الناشئين في القرن الثامن عشر وتربطه بتورغوي ومونتسكيو وقوندورسه الذي كان كونت يدعوه بابيه الفلسفي وهو تصريح يكفي لاثبات ما نقول

يصعب علينا ان نلخص في هذه الصفحات فلسفة كونت المودعة في ستة مجلدات ضخمة ولا سيما ان كتاب العرب الذين تناولوا الكلام في موضوع كونت [illegible] وغيره ممن درسوا فلسفة كونت عن كثب والفوا في انتقادها لم يوضحوا مذهبه ايضاحاً

---

(١) معربة عن التركية

يزيل اللبس والابهام ويوقف العالم على حقائقه . ولم يكن بين من كتبوا في هذا البحث من اوضح لنا كيف اقتبس كونت فلسفته من الرياضيات وما الذي دعاه الى تقسيم المعلومات البشرية الى ستة فروع كبرى وكيف بدأت فلسفته بفكر رياضي وانتهت بفكر اجتماعي .

ولا يتسنى لنا ان نفهم حقيقة هذا الفيلسوف الا اذا درسنا ترجمته ثم الذين ادلوا بها وصاروا الى مذهبه الفلسفي

ترجمته

هو ايزيدور اوغست ماري فرانسوا كزافيه كونت (Conte) ولد في قصبة مونبلييه سنة ١٧٩٨ وكان والده يجبي الخراج في القصبة المذكورة وبعد ان اتم التحصيل الابتدائي في مدرستها دخل دار الفنون في باريس فامتاز فيها بعصيانه للقوة الرسمية الحاكمة واحترامه الشديد لكل حق وفكر ثابت راسخ في نوعه عليه ولم يطل مكثه فيها سوى سنتين رأس بعدها الاحتجاج على احد اساتذتها آل الى اخراجه من المدرسة فعاد الى موطنه حتى كانت سنة ١٨١٦ فأم باريس غير مكترث باعتراض والديه الشديد واقام فيها يحصل قوته بالقاء دروس خاصة في الرياضيات وجعل همه تقليد بنيامين فرنكلين الذي كان يدعوه سقراط زمانه في مبادئه حتى انه امتاز عن جميع الفلاسفة بصلابة العزم والثبات على مبدأ قرر له حياة تبكي مرارة وشقاء

وضاق به العيش في باريس فحدثته النفس بالهجرة الى اميركا وكان في وشك ان يهاجر لولا صديق ثناه عن عزمه عن المهاجرة بحجة اوردها في عرض حديث تجاذبا اطرافه عن « الفكر العملي » في العالم الجديد فقال له صديقه ان لاكرانج (رياضي فرنساوي شهير) لو ذهب الى اميركا لم يجد عملاً يقوم باوده سوى مسح الارضين . فعدل كونت عن السفر واقام في باريس يعاني الحياة المرة ويتبلغ بثمانين ليرة يتقاضاها راتباً سنوياً من احدى المدارس التي انتدبته لتعليم الرياضيات حتى سعى له اصدقاؤه بوظيفة تدريس في دار المسيو كازيريه الشهير فدخلها ووجد هناك اسباب الراحة والهناء غير ان المعيشة لم ترقه لحنينه الى الحرية التي اضاعها ولم يستقر به المقام اكثر من ثلاثة اسابيع ودع بعدها مضيفيه وعاد الى حالته السابقة وقناعته الفطرية وقد يكون الفقر في الشبيبة داعية الشر الا اذا كان الشاب الفقير متحلياً فتساعده الحاجة حينئذ

على ان يكون الميل الى الحقيقة بين اهل الخيال

وسنة ١٨١٨ اتصل كونت بهنري دوسان سيمون ابن اخت الدوق دي سان سيمون المشهور وكان في عهده من كبار كتاب المذكرات السياسية فكان لهذا الاتصال تأثير شديد في نظريات كونت الفلسفية

كان سان سيمون يوم لزمه كونت في الستين من عمره ولم يكن ذا شهرة طائرة غير ان غرابة خياله واحواله الاجتماعية وافكاره السياسية تستوقف الانظار فقد قضى الرجل عمره ساعياً بما له من الملكة العقلية الرائعة لتطبيق خيالاته على حقائق الاشياء والتربية الفنية لم يكن بطائل الرقي هذا الرجل لانه لم ينشأ عليها ولا شعر بلزومها بل انه كان خبيراً بالاتحاد الاجتماعي وله في السياسة الحديثة وترقي البشر كثير من الافكار الخطيرة ولكنه لم يبنها على محاكمة منطقية بل هي اشبه بتخيلات الشعراء

هذا الفيلسوف الشيخ سحر كونت فلم يستطع ان يفكر في حقيقته الا بعد ان فارقه حتى انه لبث يحترق بسبب حدوث ذلك له بعد ان انقطعت اواصر ودهما ولم يستطع الا ان يعترف بنفوذه عليه وتأثيره في تربيته الفلسفية واشتدت وطأة التأثير في كونت حتى لاقى جهاداً نفسياً يوم مفارقته سيمون لخلع هذا النير عن عاتقه .

ونعرف ما كان للفيلسوف الشيخ من الايادي على كونت من كتاب بعث به الاخير الى صديق له يقول فيه ان سيمون اراني الخطة الفلسفية التي اسلكها الآن وسأطرد السير فيها كل عمري غير ملتفت الى ورائي وهذا الاعتراف الصريح لا يحط من قدر كونت ولا ينقض ارجحيته العقلية وتفوق مدركاته على صديقه الشيخ ولا ينقص من قدره انه اخذ كثيراً من افكاره التي اقام عليها بناءه الفلسفي من افكار سيمون المتطرفة وخلاصة القول انه لا يصح ان نعد كونت تلميذاً لسان سيمون ولا مقلداً له وكل ما في الامر ان الشيخ اوقف صديقه الشاب على نظريتين مهمتين كان لهما الشأن الاكبر في فلسفة الاخير اولاهما ان الحوادث السياسية هي كالحوادث الطبيعية يمكن جمعها وربطها بقوانين مقررة وثانيتهما ان غرض الفلسفة الاصلي البحث في النظام الاجتماعي فتناول كونت هذا المبدأ وتوسع في بسطه وشرحه توسعاً لم يخطر للشيخ في بال

دامت صحبة الرجلين ست سنوات ثم بدأت بالانحلال لما اوقر كونت من سلطة سيمون الثقيلة وما دخل الى نفس الشيخ من الغيرة والحسد لما رأى من بروز الشاب عليه بمداركه ومواهبه وحدثت ثمّ حادثة قطعت العلائق التي رثت ووهت وملخصها ان سان سيمون

نشر كتاباً في الاجتماع نقل فيه معظم افكار كونت لنفسه فغضب الاخير وعاتب صديقه عتاباً مراً ولم يكن سبيل التوفيق بين الرجلين فكان فراقهما ابدياً

وتزوج كونت سنة ١٨٢٥ فزاد ذلك في اسباب تعاسته وشقائه لان أسرته وهي شديدة التعصب للملكية والكاثوليكية انتقدت زواجه المدني فناصبته بالخصام الا ان ذلك لم يمنعه من الاحتفاظ بزوجته وشخص العروس [illegible] دون ميله [illegible] سئمت الزوجة فيما بعد هذه الحرية ذات الحق الواحد وبدأ نزاع انتهى بفراق الزوجين كما سيجيء ولما كتب كونت الى صديق مخلص في السنة الاولى بعد زواجه يقول «ان الاعراض المرضية والهواجس التي استحوذت علي واضطررت ان افادي من سعادتي بحرية اذا لم يكن اعظم احزانها الى الابد واحلامها»

وولادة الافكار السامية في هذه البيئة الرديئة يحرك في النفوس مواضع الدهشة والاعجاب ويحملها الى احترام الفيلسوف الذي كان يقوم على تنشئتها والخطوب المتوالية تفسد نظام حياته وكان الفضل عليه في كل الامر الحقيق في ايجاد تلامذة يتلقون افكاره وآراءه ولم يشعر سوى شخص اضحى له الوحدة لوداع الشدة غير آسف

وفي هذه الاثناء اخذت افكار الفيلسوف تتكامل وشرع بنشر مقالات في جريدة المنتج (لو برودكتور) كان يتقاضى عن ابحاثه [illegible] ولم ييأس من بث افكاره بواسطة تلاميذه عمد الى القاء محاضرات والقى المحاضرة الاولى سنة ١٨٢٦ راجياً ان يصيب بذلك شهرة وان يجمع بفضل مال يستعين به على حاجته وفقره ونبه احد اصدقائه الى ذلك بقوله ان كثيرين يجدون في آرائك وافكارك عبر ذكرياتك بشيء ويقول الك انت صاحبها فعمل بنصيحة صديقه وتمت المحاضرة الاولى رجال من حلة علماء فرنسا ونخبة ادبائها

ولما كاد طالع السعادة يبسم لكونت وتحدث الناس باسمه وفضله حتى دهمته الكوارث التي تعروه دائماً عقيب المحاضرة الثالثة لان قوة الفكر انهكت بتأثير اشتغاله المتوالي فاصيب بمرض عضال ظل مصاباً به الى ان نجاه الله من مرضه فكره بما آلت اليه حاله والعسر الشامل الخانق ليئس من الحياة فعمد الى الانتحار غرقاً في نهر السين ثم عدل عن الانتحار وبدأ يسترجع قواه العقلية والجسدية

وفي هذا الطور التعس عاد لكونت [illegible] في اثناء [illegible] بيته وكان المرض قد اثر فيه تأثيراً شديداً فظهرت عليه امارات الجنون فقام [illegible]

من معارضي كونت يذمون طريقته ويتخذون هذه الحادثة حجة على سخف رأيه وفساد تعليمه ويقولون ليس من الثقة في شيء ان يتبع الانسان مذهب مجنون وهذا تحامل مجرد يقصد منه تضعيف تأثيره فقد أصيب نيوتن قبله بمرض دماغي لم ينقص ذلك شيئاً من حرمته والاعجاب بكتابه المسمى (برنكيبيا) الذي وضعه عقيب ذلك المرض

وبعد ان استعاد كونت قواه عاد سنة ١٨٢٨ الى القاء المحاضرات ونشر المجلد الاول في دروس الفلسفة الوضعية سنة ١٨٣٠ بعد تعب كثير وعمل طويل بدأه سنة ١٨٢٦ ولم يكن العمل في المجلدات الخمسة التي تلته اقل عناء فانه لم يتمكن من نشر المجلد السادس الا سنة ١٨٤٢

كانت الاثنتا عشرة سنة التي انصرفها الفيلسوف في التأليف سني خير وبركة عليه ذاق في خلالها السعادة المادية لانه دعي في سنة ١٨٣٨ الى امتحان الطلبة الذين يتوافدون من كل صوب الى كلية باريس والتحقت بها مدرستان كبيرتان لتعليم الرياضيات فأصبح دخله السنوي اربعمائة ليرة ولما كان عهد لويس فيليب دعاه المسيو كيزو وهو رئيس الوزارة ليدرس تاريخ الدولة فقال له « اذا كان هنالك اربع كراسي لتدريس تاريخ الفلسفة وجب علينا ان نخصص كرسياً للاول لظهور العلوم الثابتة وارتقائها » فدل الوزير بذلك على جهله الفلسفة الحسية ولولا انتصاره لما فوق الطبيعة ايضاً لتقدمت في عهده تقدماً باهراً

وفي كتاب ارسله كونت الى زوجته مايدل على رقة قلبه وسمو عواطفه فقد قال لها في ذلك الكتاب « لا اود ان اصف لك هذا الشعور الذي يخيم على نفسي فأرى الشاب لي في انجاله وقرب من ابنائنا المدهشة انت تضحكين من ذلك ولكنني لا املك من ان اذرف دموعي »

وكان كونت يفكر دائماً في سعادة الآخرين ويسعى الى منفعتهم بكل سبيل وهذا الاعتناء الدائم حمله على القاء الخطب والتدريس في المجتمعات العامة من سنة ١٨٣١ — ١٨٤٨ على ما كان يعترضه من الموانع . وفي هذه السنة حدثت ثورة في باريس اظهر فيها كونت عطفه على المجتمع فقد كان يفضل السجن على الدخول في الفرق الوطنية التي الفت يومئذ ومع انه لم يدع الناس لحمل السلاح على الملكية فانه لم يتهم قط بعدم الاخلاص

ولم يكن كونت يتأخر من مشاهدة الروايات مع انه كان كثيراً ما يحضر الملاعب والفاجعات (تراجيدي) في الفرد دواهي مصطنعة ليس فيها من الحقيقة الا ظل لطيف

قبل اكثرالهم بها وباسلوبها القصص الضحكة « كوميدي » .

وقد كتب احد تلامذته عن احواله وصفاته الشخصية ما يأتي

دقت ساعة لوكسمبرج الثامنة وكان صدى صوتها لا يزال يرن في الآذان حين انفتح باب الغرفة ودخل رجل قصير القامة مائل الجسم نظيف الثياب [illegible] من قمة شعره حتى لم يبق [illegible] وكان يكتسي الاثواب السوداء ويتأنق في لبسه فكأنه راهب حلة مدعو الى وليمة وكانت جبهته لامعة كأن المكواة مرت عليها حديثاً فاقترب الرجل من كرسيه المعد له وراء المنصة ووضع قبعته [illegible] امامه وبعد ان استمد [illegible] الى الصحيفة التي امامه شرع بكتابة الدرس مفتتحاً فيه بقوله كما قلنا في [illegible] الدرس السابق

ودام درسه ثلاث ساعات والطلبة يدونون الموضوعات المهمة في مذكراتهم ليتمكنوا من مراجعتها كل على حدة ثم سحب من جيبه ورقة اخرى فعاد تلاوة الدرس السابق ووصل حتى الساعة الخامسة فتناول عصاه ونفض ما علق به من الطباشير وكانت يده في جيب معطفه وفتح الباب وخرج بسكينة تامة

فلما أتمّ نشر المجلد الاخير من الفلسفة الوضعية سنة ١٨٤٢ ورد المرء يقيل عثرة المكافأة التي يجب اسداؤها لهذا الفيلسوف بل للاثني عشرة سنة صرفها في الجد والتعب الشديد يجد ان جزاءه كان تزايد المشكلات والخطوب في قيد الصدر فقد [illegible] في تلك السنة ما [illegible] بينه وبين زوجته فأدى الامر الى انفصالها بعد ان [illegible] ثلاث عشرة سنة وذلك من ابيت الحب في هذه المدة لان احوال الزوجين [illegible] الاطلاع عليها حتى [illegible] احد اصدقائهما [illegible] كومت بعد الانفصال تفكر في سعادة زوجها ودامت المراسلات الودية بينهما مدة سنين

واصيب كومت بحادثة اخرى اثرت فيه وهو ان [illegible] المجلد السادس حتى [illegible] الكتاب حوادث تنكر فيها [illegible] كومت الشديدة على [illegible] فغضب الفيلسوف [illegible] وحاسته الجامحة [illegible] دعواه

واشد المصائب التي نكب بها هو ان [illegible] الاشراف على الامتحانات في المعهد الثالث [illegible] الى الاحتياج [illegible] كومت العيش [illegible] صديقاته [illegible] الانكليزيين الذين اثرت فيهم افكار الفيلسوف [illegible] وآرائه [illegible]

اصول المنطق وقد كثرت مراسلات الصديقين ونشر جزء منها في المدة الاخيرة فهاج رغبة الجمهور للاطلاع على سائرها

ولما انتهت اليه كتب الفيلسوف باحت بالحالة التي عرف بها من عطفه الشديد على الرجال العلماء ورثى لشقائهم فنهض الى مساعدته وطرق ابواب ثلاثة من اصدقائه من اعاظمهم لمساعدة الفيلسوف فتعهدوا بتقديم مائتي ليرة له سنوية وكان ذلك سنة ١٨٤٥

ولم يوفق كونت لعمل شيء يدل على شعوره بجميل الانكليز فلما عاد اليهم ميل في السنة التالية اعطاه الاول مبلغاً زهيداً ورفض الاثنان الآخران مساعدته قائلين يجب على كونت ان يعول نفسه بنفسه فلما أخفق ستيوارت في مساعدة صديقه بهذه الوسيلة اشار عليه بكتابة مقالات للصحف الانكليزية وتعهد له بترجمتها فرضي كونت اولاً بهذا الطلب ثم عاد الى عتوه واغتراره فأخذ يتهم الانكليز بفساد الاخلاق مما اغتاظ ستيوارت وباعد ما بين الصديقين حتى انتهى الامر بانقطاع المراسلات ومن كلام كونت في هذا الصدد قوله : اذا يترك الرجل بعد موته مبلغاً من المال لنفع لم يعرفه فهو لا يعد مساعدة الرجال الذين عرفهم في حياته فرضاً طبيعياً ؟ الا ان الانكليزيين صرحا له بعد ان ميلاً لا يقولان بقوله والرجل يجب ان لا يقبل في المبدإ الا مساعدة الذين يرتضون رأيه وقبوله معونة من سواهم حطة من قدره

وما زال كونت يدفع لامرأته مائتي ليرة سنوياً من ١٨٤٥ الى سنة ١٨٤٨ إذ هبطت رواتبه بدون سبب الى ثمانين ليرة ففتح المسيو ليتره وبعض الاصدقاء اكتتاباً لمساعدته فجمعوا من المال ما وسع على كونت زمناً من الزمن وقد كان في جملة المشتركين بهذه الاعانة المستر ستيوارت ميل الذي لم يمنعه استياؤه من معاملة كونت عن مساعدته واسعافه

ويرى المطالع ان كونت لم يتصرف مع اصدقائه تصرفاً يليق برجل عظيم مثله لان نفسه جمعت الى خصالها الحميدة من رسوخ العزم وقوة الارادة والثبات والمثابرة على خدمة البشر نقائص مشتقة من الغرور والعجرفة وإذا جاز التمثيل شبهنا كونت ببروتوس وكاتو

وإذا اراد الانسان ان يحب كونت وجب عليه ان يتصور حالته التعيسة وحياته الشقية وخطوبه المتواترة وهو بين هذه الظلمات دائب على انجاز مهمته لا يكل ولا يني فما زال يركب الى غايته الخطوب حتى فاز بما اراد وكانت القوانين

الاساسية لفلسفته الموجبة في عهده مطالعة صحيحة لأن كونت وضع لها ما يزيل الاشكال ويقيم لها حدوداً بينة امام افكار حساده ومزاحميه .

ولم يكن كونت يكتب كلمة قبل ان يجول الموضوع ويكمله جملة وتفصيلاً في ذهنه ومتى فرغ من استحضارها شرع يكتب بتدفق سيال العقل سلسلة من الافكار تجري في املائه بدون انقطاع ولا تردد لقوة ذاكرة كونت واستغنائه عن العود الى المذكرات ولكن اسلوبه الكتابي لم يكن بالحلاوة الجذابة لافكار القراء واذا كان لا يتوقع منه كتابة كالشعر في تأثيرها وسلاستها الا ان الكتابة في ارقى الموضوعات العلمية اذا لم تكن طلية مل فيها اكثر القراء حالاً في الاستقصاء واذا قرنا اسلوب كونت بغيره من الفلاسفة كهيوم وديدرو وامثالهما رأيناه ثقيلاً جافاً وربما وقعت في كتاباته بعض العبارات الشاذة الا ان جميع اصطلاحاته خالية من سلامة الذوق في الانتخاب وقد كان يكثر من ادوات الحال في مثل الجمل حتى لا يثبت في مطالعتها الا من أوتي الصبر الجميل من تلامذته ولكن قوة فكره ونفوذ نظره وسمو آرائه تشرح له السبيل الى ذهن القارئ وتستر هذه النقيصة وتضعف تأثيرها واذا كانت واسطته كتابية فاسلوبه لا يؤلف جزءاً من تلك المتعة اللائقة بأهمية الافكار والمثلة ورفعة الفن الذي اوجده .

وركاكة اسلوبه ناشئة عن عدم مطالعته مؤلفات فطاحل الكتاب فهو لم يقرأ الا قليلاً كان يحتمي على حفظ الصحة الدماغية وقيل انه بعد فلسفته الموجبة لم يطالع سوى دواوين اثنين او ثلاثة من الشعراء في مقدمتهم دانتي واهمل ما سوى ذلك حتى قراءة الرسائل والمجلات ولكن اصدقاءه كانوا ينبئونه بكل حادثة جديدة في عالم الفن فأدى هذا الانقطاع الى تحرير نفسه من قيود الاجتماع والمؤثرات وجعلت افكاره بمعزل عن الاعتبارات الخارجية واذا كان ادراكه من هذه الوجهة فقد اضره من الوجهة الاخرى لافراط في ثقته وضعف شعوره بالعالم الخارجي وقد وضحت فيه هاتان النقيصتان في اواخر ايامه

وقبل ان اتم ترجمة كونت اذكر حادثة حدثت له سنة ١٨٤٥ يوم تعرف الى مادام دي فو :

كانت هذه العقيلة ايماً لأن زوجها حكم عليه بالسجن المؤبد ولا تعرف الا اليسير من اوصاف المرأة وخلالها ولكن ما ثبته هو انها وضعت قصة رفعتها في عيني كونت الى مستوى مادام جورج صاند ولم تكن هذه القصة في ذاتها شيئاً يستحق الذكر لا انها

دلت على ذوق سليم وفطرة جيدة فتوثقت بينهما روابط الولاء واصبحت العشيقة عزاءه في احزانه واقامت في نفسه روح الهدوء والسكينة ولو طالت مودتهما لم يظهر اضطراب الفكر في كتب كونت الاخيرة الا ان الاقدار التي ناصبت الفيلسوف طول حياته فجعته بحبيبة نفسه وموضوع سلوته سنة ١٨٤٦ فجزع لفقدها جزعاً شديداً ولازمه الحزن والغم فكان يخرج الى قبرها مساء كل اربعاء اذا توارت الشمس في الحجاب يبلله بقطرات دموعه ويجثو في الدار ثلاث مرات احتراماً لذكرها فيستغرق في احزانه وينتقل الى الجزع وكان تلامذته يقولون انه يقدم لها من الاحترام ما قدمه دانتي لحبيبته بياتريس ويشبهون حاله بحال دالامبر بعد وفاة لينياس

الباحثون في حياة كونت يقسمونها الى شطرين احدهما يمتد حتى تعرفه الى العقيلة دي فو والآخر بعد ذلك ويفرقون بين الشخصين كونت الذي كتب الفلسفة الوضعية وكونت الذي الف في السياسة الوضعية الا ان اتباعه يأبون كل تفريق في هذا الصدد ويقولون ان العقل الذي كتب في السياسة هو نفسه الذي كتب في الفلسفة

ولم يكد كونت ينتهي من نشر الفلسفة الوضعية حتى بدأ بنشر سياسته وهذه بالطبع تمتد الى ذلك فنشر المجلد الرابع والاخير في سنة ١٨٤٨ وفي هذه السنة حدثت ثورة في فرنسا لم تمتد للانتهاء حتى هرع كونت الى تأليف جمعية دعاة الوضعية توقع ان يكون لها من الشأن في هذه الثورة ما كان لنادي الجاكوبين في ثورة ١٧٨٩ واذا كان كونت لم يدرك جميع آماله في انشاء هذه الجمعية فقد ادرك بعضها باجتماع تلامذة الفيلسوف ووضعهم مذهباً فلسفياً جديداً كما يهوى ويختار

وكان كونت سنة ٤٩ و ١٨٥٠ يلقي في القصر الملكي (باله رويال) في باريس محاضرات متتالية يحضرها عامة الناس وخاصتهم فيبحث في فلسفته ومعتقداته ودعاويه وقد ختم محاضرته الاخيرة بقوله :

« باسم البشرية والفلسفة والحقيقة يجب ان تتولوا زعامة العالم لأن ذلك حقكم الصريح واقصى اماني الانسانية تأليف حكومة اخلاقية مادية فكرية بان الحكومات التي قامت على دعامات الكثلكة والبروتستانتية سقطت لان الناس اتخذوها وسيلة لاضرام الثورات وقضاء الحاجات »

ومن غرائب الاتفاق ان يقوم بعد هذه المحاضرة ببضعة اسابيع رجل يدعو الناس الى طاعته لا باسم الانسانية بل لدعواه انه صاحب الحق بالسلطة المطلقة وان يحمل

الناس الى معرفته كذلك بالقوة القاهرة

وسنة ١٨٥٢ نشر كونت رسالة في مذهب الانسانية ظهر فيها ارتياحه الى ضربة لويس نابوليون الحكومية وانشائه جمهورية هو فيها الحاكم المطلق ومهما يكن من قيمة الافكار السياسية التي عبر عنها كونت في هذه كتبه وهو لا يعتبر ان تزول الحال التي آلت اليه من الضغط والاستبداد والحط للشعوب

واصيب كونت سنة ١٨٥٧ بداء السرطان وقضى في الخامس عشر ايلول فانتهت حياة مرة الفكر الانسان وفي هذا اليوم من كل سنة يجتمع تلامذته الباقون من تلاميذه ومريدوه يذكرونه ويقومون بمراسم دينية لانفسهم وقد قضى كونت وهو دون الستين وهو لا يعتقد الا ان أنصاره يجرون في حزن بالغة من اشد ما اصاب الامر ابلاغا وهي « ان يقضي ارباب الفكر الحر في سبيل تحكيمهم في نشر افكارهم قبل ان يدركوا امانيهم وتنفذ رغباتهم »

« فلسفته »

لاتعرف الطبيعة الا قياسها وقياسها يجري بتحويل في اغلب الاوقات شواهدها متعرضا من المتاعب في قياس طول بالوحدة المترية او يشترط في صحة القياس ان يطبق المتر على السطح كل الانطباق ولدى دوائر عديدة للاستدلال يبعد هذا القياس متعذراً لتفاهة المتاعب. فتلك في اقل البسائط فكيف بها في ارقى المركبات كتقدير الابعاد بين الاجرام السماوية

ذلك ما اقاد الفكر البشري الى وضع العلوم الرياضية فاذا تعذر او استحال علينا ان نقيس مساحة او مقدار كمية مباشرة توصلنا الى ذلك بالطرق الرياضية فنضع بين ما لا يقاس توا وبين ما يقاس واستخرجنا الاول من الثانية في قاعدة الحساب

فلكي نقيس مساحة شكل هندسي كالمثلث مثلاً نعنى بالعلاقة بين الاضلاع والزوايا فتسهل علينا معرفة المساحة. بهذه الوسيلة وامثالها من نوعها تمكن الفكر البشري من تقدير الابعاد بين الاجرام السماوية الى معرفة حجومها واشكالها الحقيقية وظواهرها الطبيعية وسعتها وامتدادها ووزنها وجاذبيتها الى غير ذلك من المعلومات التي بلغها بالوسائل الرياضية وغرض الرياضيات معاينة الكميات وتقديرها بالواسطة وذلك يدرك بمعرفة النسبة بينها فالرياضيات اذن علم تستخرج بواسطته الكميات المجهولة من الكميات المعلومة

للبداهات الصريحة الموجودة بها

ماهي الكمية ؟

عرف الرياضيون الكمية انها ما يقبل الزيادة والنقصان ويمكن تقديره بالوحدة القياسية [1]

فالعدد والطول والسطح والحجم والزمان والمكان وسرعة الجسم ووزنه وغيرها من الاركان الداخلة في الحوادث الطبيعية هي كميات تتوفر صفتا الكمية فيها وقد اكتفى الرياضيون بالمعلومات النسبية ولم يخطر لهم ذلك ببال ان يبحثوا في ماهية المكان والزمان والمادة لانها الأسس التي تقوم عليها الطرق البشرية فليس في الوسع ان تثبت او تعرف ولهذا السبب حصر الرياضيون همهم في كشف النواميس التي تؤثر في هذه الكميات والظواهر النسبية بين ما اجتمع منها في حادثة واحدة بدون ان يحاولوا الوصول الى معلومات مطلقة

والرياضيات تثبت لنا ان في وسعنا استخراج بعض الكميات الداخلة في احدى الظواهر الطبيعية من البعض الآخر اذ لابد من وجود روابط بينها ولم يشهد الناس حتى اليوم ظاهرة فقدت فيها هذه الروابط ولكنها قد تدق حتى يتعذر على الباحث اكتشافها

اذا بدلنا كلمة « كميات » في تعريف الرياضيات بكلمة « حوادث » كان لنا تعريف العلم الحقيقي فهو ما يوضح بعض الحوادث ببعضها الآخر مستنداً في ذلك على العلاقات الموجودة بينها . وكل علم يجمع طائفة من الحوادث ويؤلف بينها ويستخرج من مجموعها نواميس عامة ويضع قواعد اذا جرب تطبيقها عرفنا نتائج حادثة بقياسها على حادثة ثانية من نوعها فاذا عجز عن ذلك لم تصح تسميته علماً

ثم اننا اذا وضعنا كلمة « النواميس الطبيعية » بدلاً من « العلاقات بين الحوادث » كان ذلك اصح وقد حددت الرياضيات لنا معنى هذه العلاقات فوق تحديد كل ما سواها من العلوم فهي تدلنا على معنى الاطراد بالعلم واذا شئنا ان نقف على فكر صحيح في تحديده وجب علينا الرجوع الى الرياضيات لان الاصول العامة التي يقتضي ان يسري عليها الفكر في

---

(1) زاد المتأخرون الشرط الثاني من شروط الكمية اما المتقدمون فقد اكتفوا بالشرط الاول فكانت صلابة الجسم في عرفهم كمية لانها تقبل الزيادة والنقصان الا انها ليست كذلك عند المتأخرين مع ان الاجسام تختلف في الصلابة الا ان هذه الصلابة لا تقاس بالوحدات

للابحاث لا تعادلها في علم الرياضيات وليس من امر آخر [illegible] العلماء بقصور الى استخراج النتائج بدقة وضبط هذه هي النقطة التي [illegible] منها مذهب الوضعيين لواضعه اوغست كونت

استنبط الفيلسوف الفرنسي هذا العلم من الرياضيات واقتبس منها الاصول التي يجب ان تجري عليها في الابحاث العلمية ما الناس [illegible] في ان الحوادث (١) كافة تجري في قوانين مقررة والعقل البشري يعجز عن معرفة منشأ الحوادث الاولي ومنتهاها الابدي وهذه حقيقة لا ينكرها من كان ذا مشاركة في العلوم الطبيعية لانه يعرف ان الغاية من ايضاح الحادثة الطبيعية ليس الا تعيين الاحوال والشروط التي يمكن بموجبها حدوث مثلها وتعيين علاقتها بغيرها من الحوادث الشبيهة مثلاً [illegible]

اكتشف نيوتن الجاذبية العامة فاوضح بها جميع الحوادث الفلكية وبين ان كثيراً من الحوادث التي كان الناس يتوهمون ان لا علاقة بينها كالخسوف والكسوف والمد والجزر انما هي مظاهر مختلفة لحادثة واحدة عامة كما هو مبين اعلاه فيتناول تفسير جميع الحوادث الفلكية الجاذبية العمومية ولكننا نعجز عن معرفة ماهية الجاذبية ومنشأها الاصلية ولو امعنا في ذلك لم يكن عندنا جواب وليس هذا [illegible] من الفلسفة الوضعية ثبت انا ايضاً الذين نستطيع ادراك ذلك [illegible] عن هذه الجاذبية لعلماء [illegible] الطبيعة [illegible] قال ان اهتزازات الجواهر الفردية بسبب [illegible] لا يكون قد اوضح مبهماً لان الاشكال ينتقل من الثقل الى الاهتزازات ولا [illegible] نستطيع ان نسأل عن سبب الاهتزاز ايضاً

اذا اردنا ان نفهم الصفة المميزة لفلسفة المثبتة يجب علينا ان نتتبع الفكر البشري في ادوار ارتقائه وقد وضع كونت لذلك قانوناً عاماً اقتبسه من معلومات العصر الحاضر وشهادات العصر الماضي

وهذا القانون هو ان كل فرع من المعارف يجري في الارتقاء بثلاث حالات مختلفة اولها « الدور الوهمي » والثاني « الدور المجرد » والثالث « الدور الثابت » (٢)

Etat fictif Etat Abstrait Etat positif.

---

(١) ليس المقصود بالحوادث هنا الحوادث الطبيعية فقط بل والحوادث الاجتماعية

(٢) ويدعونها ايضاً Etat theo-logique metaphysique, scientifique

ونكتفي بذكر هذا القانون بدون ان نتقدم الى اثباته او معرفة نتائجه

شبّه كونت الفكر البشري بخضوعه لنواميس الارتقاء وحالاته الثلاثة التي تتعاقب عليه بالانسان في ادواره الثلاثة من طفولة وشبيبة وهرم

ونشأت ثلاثة مذاهب مختلفة لايضاح الحوادث في الادوار الثلاثة اولها « الفلسفة الوضعية » والثاني « الفلسفة المجردة » والثالث « الفلسفة الموجبة » والاول مبدأ ارتقاء الفكر الانساني والثالث غاية ما يبلغه والثاني الحلقة المتوسطة بين الاثنين

اتجه فكر الانسان في الفلسفة الوضعية يبحث في اسباب الحوادث الازلية وغاياتها الابدية فظن تلك الحوادث آثاراً من عوامل ذات ارادة مطلقة يعزو اليها كل ما شاهده بدون ان يفكر في النواميس والسنن

وارتقت هذه الفلسفة فرأت الفلسفة المجردة التي اقامت « القوى المجردة » مقام العوامل الوهمية وهذه القوى مجردة من الحيوية تسبب الحوادث المشهورة

اما الفلسفة المثبتة فقد اتفق اصحابها ان الفكر الانساني يستحيل عليه ان يدرك معلومات مطلقة فصرفوا النظر عن البحث في منشأ الكائنات ومصيرها وقصروا همهم على معرفة نواميس الحوادث فرجعوا الى المشاهدات والمحاكات العقلية لاكتشاف هاتيك النواميس

لما ارتقت الفلسفة الموضوعية حتى قال الناس بإله واحد يدير الكون بلغت اوج الكمال ونهاية الارتقاء وادركت الفلسفة المجردة نهاية شوطها عندما ارجعت الحوادث الى الطبيعة ودعتها بالقوة العامة المجردة

اما الفلسفة المثبتة فهي تسعى لتوضح ان جميع المحسوسات ظواهر مختلفة لحادثة عامة فمتى تيسر لها ذلك بلغت ارقى درجاتها على ان هذا الارتقاء غير متيسر في الاحوال الحاضرة ولاتدل الظواهر الدالة على امكان ذلك في المستقبل فاذا استطعنا ان نفسر حوادث النور والحرارة والصوت والكهربائية وشيئاً من حوادث المغناطيسية بقولنا انها نتيجة تموجات فانا لانستطيع ان نفسر الحادثات الفلكية على هذا الوجه والفلسفة المثبتة جاهدة في اظهار العلائق بين الحوادث او القرابة بين الطبيعة وصفتها المميزة صرف الفكر البشري عن البحث في ماهية الحوادث لأنها لاتخوض في هذا البحث بل تدعه الى الفلسفة المجردة التي توضح الأزل والأبد بسهولة تامة وتستقصي الاسرار العلوية حتى ادق حقايقها

يتساءل القارئ بعد ان عرف غاية الفلسفة الوضعية عن الحد الذي بلغته وعلى اي شيء يتوقف ادراكها وها نحن متطرقون في بحثنا الى ذلك

لم تمر المعلومات البشرية في الادوار الثلاثة بسرعة واحدة ولا ادركت الغايات في آن واحد بل كان اسرعها الى ذلك الحوادث الفلكية لبساطتها وسهولتها وتليها الحوادث الطبيعية فالكيماوية فالعضوية

ويتعذر علينا تعيين بدء انتقالها الى الدور الوضعي الدقيق ولكننا نعلم انها اخذت بالارتقاء منذ انشئت دور العلوم في اثينا والاسكندرية ومنذ حمل العرب العلوم الطبيعية الى غربي اوربا وارشدوا اهلها الى نواميسها وما زالت تتكامل وتتدرج في مراتب الارتقاء حتى نبغ باكون وديكارت وكبلر وغاليله واثرت مباحثهم في الافكار البشرية تأثيراً شديداً ووضعت أسس الفلسفة الوضعية التي بدأت بالانتشار والشيوع منذ ثلاثة عصور ولكنها لم تحط بكل انواع الحوادث فان هنالك نوعاً لم نذكره وهو الحوادث الاجتماعية

هذه الحوادث لا تزال غامضة النواميس كثيرة الابهام لم يكشف عن اسرارها الغطاء ولا استطاعت العلوم ان تحصرها تحت قوانين عامة وقد وضع الفكر البشري علم الميكانيكيات والحيوان والنبات وحان الزمان الذي وضع فيه علم الاجتماع فكان كونت اول من صرف افكاره نحو هذه الغاية فرمى اليها في موضوعات محاضراته الستة التي ودعت تخص المعلومات البشرية لا ان كونت قصر مرامه فيها على الفلسفة الاجتماعية بل تعمد تدوين الفلسفة الوضعية فبحث في كل علم الى حد اظهار علاقته بغيره من العلوم واظهر تدرج كل منها في الارتقاء ودخوله في الدور الوضعي وجعل اساس بحثه تعاقب الحوادث وارتباطها المنطقي فقسم العلوم الى ستة فروع كبرى تنضوي تحتها فنون مختلفة واليك هي :

(١) — الرياضيات (mathematiques)
(٢) — الهيأة (الفلك) (Astronomie)
(٣) الفلسفة الطبيعية — (Physique)
(٤) الكيمياء (Chimie)
(٥) الفلسفة العضوية (Physique organique)
(٦) الفلسفة الاجتماعية (Physique sociale)

وقدم كونت العلوم الرياضية بالذكر لأنها اقدم العلوم الموجودة واكثرها وفي

[illegible] عامل في الفلسفة الوضعية وقد راعى كونت في ترتيب هذه الفروع تاريخ تكونها [illegible] فعلم الرياضيات بدأت [illegible] ترقى من [illegible] الى اليوم وتليها [illegible] فالفلسفة الطبيعية [illegible] فالحركة [illegible] الى هذه الدرجة [illegible] ولم يصل الا الفلسفة الاجتماعية فلذلك كونت [illegible] هذه المرتبة [illegible] رجحتها في السهولة فكان [illegible]

ويرى كونت [illegible] في [illegible] هذه العلوم وارتقائها من ابسط المطريات الرياضية الى ارقى [illegible] الاجتماعية [illegible] الاستقصاء [illegible] تتبع ارتقاء الفكر البشري [illegible] وهذا التسلسل هو [illegible] في [illegible] الجامعة [illegible] كونت ان [illegible] يجب ان يكون له [illegible] الرياضية [illegible] الفلسفة لا [illegible] فيما بعدها [illegible] الى [illegible] الفلسفة الاجتماعية [illegible] الاخيرة

[illegible] الفكر الرياضي والاجتماعي [illegible] عن [illegible] الاول [illegible] الى [illegible] حتى [illegible] حصر الارتقاء البشري تحت قوانين [illegible] الرياضيات [illegible] الاجتماعية لانه [illegible] الاولى [illegible] تاسيس [illegible] الماضي في العصور الماضية لايجاد فلسفة جديدة [illegible] الفلسفة الوضعية [illegible] لان الذين [illegible] الرياضيات [illegible] او [illegible] الرياضيات لا يمكن التوسع في ذلك الفكر وحمله [illegible] الرياضية [illegible] الهندسة والبكانيك) [illegible] ولا يمكن تطبيق [illegible] الحركات [illegible] كثيرون من الرياضيين في عصرنا الحاضر [illegible] ان [illegible] الحوادث [illegible] والحوادث الاجتماعية الناشئة عن ارادة البشر [illegible] النواميس [illegible]

في الفلسفة [illegible] القول ان جميع الحوادث [illegible] هذا الشكل [illegible] كونت [illegible] مذهبه [illegible] في كتب [illegible] النواميس [illegible] يستندون الى افتراضات او يستعينون

بفلسفة ما فوق الطبيعة فاراد كونت ان يجرد البحث مما يخامره من الاوهام ويدخله في حال مثبتة

وكان كونت يقول بتجربة الوجدان المطلقة يريد بذلك ان كل فكر وكل تعبير يستعمل للافصاح عنه يجب ان يبقى من كل انواع الجزاء من الشيء البسيط الى الحكم بالخطابة وتبسط في القول على ذلك حتى ادعى ان ليس من تجربة وجدان في الهيأة والحكمة والكيمياء والفيسيولوجيا لان المرء اذا قبل مبادئها الاساسية اتهم بالهوس وليست الحال كذلك في الاجتماعيات لان المبادئ القديمة قد اضمحلت ولم تخلفها بعد مبادئ جديدة

اما اصول علم الاجتماع فكانت كغيرها من الاصول العلمية تستخلص من التجارب والمشاهدات على سبيل القياس والاستقراء فيطالع المستقري حوادث بسيطة يضع لها النواميس ثم يترقى الى الحوادث المركبة بطريق القياس فيستخرج نواميسها اذ ليس في وسع الباحثين استنباط القوانين العامة مباشرة من ملاحظة الحوادث المركبة ولكن كونت لاحظ ان الحال في العلوم الاجتماعية ليست كذلك فان حوادثها البسيطة تتألف من افعال الافراد وعواطفهم ونواميس هذه لا تختص بها بل تشمل الطبيعة البشرية ذاتها والحوادث الاجتماعية انما هي نتائج تلك البسائط

وقد كان العلماء الى عهد كونت يحاولون اخذ العلم الاجتماعي المثبت من قوانين الطبيعة البشرية العامة ثم يجعلون الوقائع التاريخية دليلا على صحة تلك الاستنتاجات فرد كونت هذه النظرية وقال اذا دلت القوانين العامة على ما لا يؤيده شاهد من التاريخ وجب علينا ان نحكم بفساد التاريخ واختلاله لان صفحاته الاولية مهزعة وكلما اعرق الناس في الحضارة ازدادوا دقة في تدوين الحوادث واذا كان التاريخ يدلنا على مجرى الرقي البشري في تمادي العصور فهو لا يوجب اتخاذ ذلك المجرى سنداً ولا يقدم قانوناً فمتى شئنا معرفة القوانين تعين علينا ان نعود الى علم النفس (البسيكولوجيا)

ان قوانين الطبيعة البشرية العامة هي في جملة موضوعات علم الاجتماع غير انها تختلف في استعمالها عن القوانين في العلوم الطبيعية فان التجارب الخصوصية في هذه تؤدي عن طريق القياس الى استخراج القوانين العامة وفي العلم الاجتماعي يتبع الناموس العام من التجربة الخاصة ثم نستخرج عن طريق القياس نتيجة تؤيد صحته

والفلاسفة الذين اشتغلوا في مباحث الاجتماع لم يكونوا يعتبرون التاريخ سلسلة

من الاسباب والنتائج بل كانوا يتلونه كأقاصيص متفرقة لا رابطة بينها . حتى جاء كونت ليبين فساد مزاعمهم في هذا الصدد وجعل التاريخ من اكبر مآخذ العلم الاجتماعي وحيث رأى حادثة شذت عن قوانين الطبيعة البشرية حكم باختلال تدوينها

والخلاصة ان اوغست كونت وضع اصول العلم الاجتماعي — كما قال استوارت ميل — واذا كان لم يوجد ذلك العلم فانه هيأ لمن بعده من الفلاسفة قوة لايجاده وطريقته المثبتة في العلوم الطبيعية واصول التحليل التاريخي ستخلد اسمه بين مشاهير الفلاسفة

دمشق   جرجي الحداد

مشاهير العرب والصناعات

وليس على عبد تقي نقيصة   اذا صحح التقوى وان حاك او حجم
(ابو العتاهية)

يتوهم بعض الكتاب ان العرب اهملوا الصناعات بل استنكفوا عنها لانهم لم يقولوا (آل الحائك) خشية تحقير المقام والحقيقة هي ان قدماء العرب لم تنصرف المكارم الى الحياكة في زمان بداوتهم لانهم لبسوا جلود الحيوانات وابتاعوا منسوجات غيرهم ولم يتقنوا الحياكة بل انهم عرفوها بعد ذلك واشتهروا بكثير منها ونقل الافرنج عنهم ما تفننوا به منها مثل الموركو والكوردوفان لنوعين من الجلود التي دبغها العرب الاول في مراكش والثاني في قرطبة . والدامسكو لنسيج الدمشقي المشجر . والدامسكين لترصيع المعدن الدمشقي والموصلين لنسيج عرفت به الموصل وصناعة الشفار والسيوف التي اخذها من دمشق الى غير ذلك مما لا يحصى . ولهم تآليف كثيرة في الصناعات يحضرني منها الآن اسم رسالة للكندي في المعادن والجواهر وانواع الحديد والسيوف وجيدها ومواضع نسبتها . ورسالة اخرى فيما يطرح على الحديد والسيوف حتى لا تنثلم ولا تكل للكندي ايضا . وغيرهما كثير لا محل لذكره الآن . ولقد ذكر جاهليو العرب بعض الصناعات في اشعارهم مثل قول طرفة بن العبد البكري من معلقته مشبهاً الناقة :

كقنطرة الرومي اقسم ربها   لتكتنفن حتى تشاد بقرمد

وقوله :